حيوانات وردت في آيات

(١٠)

كَبْشُ إِسْمَاعِيل

أحمد سويلم

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

كبش إسماعيل. -ط٢. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٨ ص ؛ ١٧×٢٢سم

ردمك: ٦-٩٣٧-٤٠-٩٩٦٠

١-قصص القرآن. ٢- قصص الأطفال. أ - العنوان

ب- السلسلة

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٨٧٣

ردمك: ٦-٩٣٧-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧/٨٧٣

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبات ونشر العبيكان Obeikan

Publishers & Booksellers

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

[الصافات ١٠٦ - ١٠٧]

obeikandl.com

obeikandl.com

لأنَّه أشرَفُ الحيَوانات فوقَ الأَرض كانَ هوَ الفداءَ والأُضْحيَةَ في أيَّام الحجِّ. وهذه قصةٌ تحكي أروعَ المواقفِ في التاريخِ على برِّ الوالدين.

ولأنَّ اللهَ تعالىَ يَحكمُ الدُّنيَا بقُدرَته وعدَالته فقَد شاءَ اللهُ لإسماعيلَ أن يَكونَ نبيّا ابنَ نَبيٍّ، يأخذُ عَن أبيه، أبِي الأنبيَاءِ إيمانَه الصَّادقَ بالخَالقِ العَظيمِ، وتَسليمَه بكُلِّ ما يَأمُرُ به.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

ولَم يَحدُثْ لإسماعيلَ ما حَدثَ لأبيهِ إبراهيمَ، وإنَّما أخذَ عَنه خُلاصةَ تجَاربِه.

فقدْ عانَى أبو الأنبيَاء الأذَى الكثيرَ من قَوْمه، ووَضعَه اللهُ تعالَى في محَن كَثيرة قَاسيَة. فكانَ يخرجُ منهَا أقوَى عزيمةً وإصراراً علَى الإيمَان بالله والدَّعْوَة إلَيه سُبحانَه. ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .. ﴾ [النحل: ١٢٠].

فقَدْ نَشأَ إبراهيمُ فوجدَ أبَاه يعبدُ الأصنامَ، بلْ كانَ يَنحتُها، ويَبيعُها.

ماذَا يَفعَلُ وَلدٌ ـ منَحَه اللهُ العَقلَ الرَّاجحَ والوَعْيَ الصَّادقَ ـ معَ أَبيه؟

هَلْ يسفِّه عملَه، ويحقِّرُ أصنامَه وآلهتَه، فينفرُ منهُ أو يَرميه بالعُقُوقِ؟

كانَتْ هذه أُولَى المحَن في حَياة الفتَى إبراهيمَ عليه السَّلامُ.

ويحاولُ الفَتَى أن يُحاورَ أبَاه باللِّين والأدَبِ الجَميلِ: يَا أبَتِ، أتَتَّخِذُ أَصْنامًا آلهةً، وهِيَ لا تَنفعُ ولا تَضرُّ؟!

فقد رأى أباه ينحتُها من الحجارةِ وهي جمادٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ ولا تتكلَّمُ ولا تأكلُ ولا تستطيعُ الدفاعَ عن نفسها فكيفَ تكونُ آلهةً تُعبدُ، هذه الحقائقُ جعلَها اللهُ في عقيدةِ إبراهيم ـ عليه السلامُ ـ منذُ الصغر؛ لأن الله يقول عنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١، ٥٢].

وقال أيضاً عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، فإبراهيمُ كانَ يعلمُ منذُ صغرِه الحقيقةَ الكبرى وهي أنَّ اللهَ وحدَهُ هو خالقُ هذا الكونِ وهو وحدَهُ سبحانهُ يستحقُّ العبادةَ.

لذلك ناقشَ أباه بكلِّ أدبٍ في الأوثانِ التي ينحتُها ويعبدُها قومُه، بلْ إنه ناقشَ قومَه ودعاهُم إلى اللهِ الخالقِ المدبرِ، وبيَّنَ لهم حقيقةَ الحجارةِ التي يعبدونَها.

فأجابه قومُه بكلِّ كبر وصلفٍ وغرور: لقدْ وجدْنا آباءنا يعبدونَها فنحنُ نعبدُها كما فعلَ آباؤنا.

إنه جوابٌ يدلُّ على الجهلِ الكبيرِ الذي همْ فيه.

فقال لهمْ إبراهيمُ: إذا كان أباؤُكم على خطأٍ كبيرٍ في هذهِ العبادة فهلْ تتبعونَهم؟! ألا تنظرونَ إلى الأصنامِ إنها لا تنطقُ.. لا تنفعُ.. لا تضرُّ.. لا تشفي من المرضِ.. إذاً لا تستحقُّ أن تكونَ إلهاً يعبد.

وبعد جدال طويل؛ إبراهيم يأتيهم بالحجج والأدلَّة، وقومُه يدلُّونَ بالجهلِ هددَ إبراهيمُ أصنامَهم قائلاً بصوتٍ منخفضٍ ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وانتظرَ إلى يومِ العيدِ حيثُ يخرجُ أهلُ القريةِ خَارجَها ويتركونَ طعامَهم عندَ الأصنامِ لتباركها!! ثم يعودونَ مساءً للعشاءِ، دخلَ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ فقالَ للأصنامِ مستهزئاً بها: هيَّا كلوا من هذا الطعامِ مالكمْ لا تأكلون، ولماذا لا تجيبون؟! ثم أسرعَ إلى أصنَامِ قَومِه يُحطِّمُها بمِعولَه، ويتَحدَّاها أنْ تدافِعَ عَن نَفسِها، ثُم تَركَ مِعْولَه في عُنُقِ كَبيرِها.

لقَـدْ تطاولَ الفـتَى إذَنْ عَلَى آلهَةِ قَـومِـه، وعِقـابُ ذلكَ عندَهم الإحْـراقُ بالنَّار، وهُنَا تَكونُ المِحنةُ الثَّانيةُ.

يجتـمعُ القومُ في صَـعيـد وَاحد يُشـاهدونَ القصـاصَ فيمَن تَعـدَّى علَى مَعبُودَاتِهم. سألُوه: أأنتَ الذي حطَّمتَ أصنامَنا يا إبراهيمُ؟

قالَ مُشيراً إلى كَبيرِ الأصْنَامِ :

- اسأَلُوهَا إنْ كانَتْ تَنطقُ.

ثُمَّ قَالَ بعدَ لَحظَةِ صَمْتٍ: نَعَم، فعَلْتُها بِمعْوَلي هذَا.

إذنْ لقَد اعترَفَ الفتَى وتَجرَّأَ، فَحقَّ عَليه العِقابُ.

وسُئِلَ أخيراً: أتَعترفُ؟

قالَ: باللَّه رَبِّ السَّمَواتِ والأرْضِ ورَبِّ البَشَرِ جَميعًا.

وجَمَعُـوا الحَطبَ وأشعَلُوا النَّارَ، وصَعدَتْ ألـسنَتُها إلى الفضَـاءِ. ويُشيرُ كَبيرُ القَوم أنْ أوثِقُوا إبراهيمَ وألقُوهُ في هَذِه النَّارِ.

لَم يَخْشَ إبراهيمُ النَّارَ، بَل ابتسمَ وقَلبُه مَملوءٌ بالإيمَانِ، ونفسُه مُطْمئنةٌ مُسَلمةٌ بقضَاءِ اللهِ.

ويُلقُونَه في النَّارِ المُتَأجِّجة، ويَظَلُّ القَومُ مُنتظرينَ إلى أنْ خَبَتْ وسَكَنَتْ.

فإذَا بإبراهيمَ يخرجُ من النَّارِ سَليمًا معافًى؛ فقَد شاءَ اللهُ أنْ تكونَ النَّارُ بَرْداً وسَلامًا عَليه.

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩١ - ٩٨]، وقال أيضاً: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠]* .

وكانَتْ آيةً كُبْرَى لكُلِّ مُعانِد مُجادِلٍ.

---

* فائدة لطيفة: عن أم شريك ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ أنه أمر بقتل الوزغ وقال: «وكان ينفخ النار على إبراهيم» والوزغ هو «أبو برص».

لكنَّ القومَ خافُوا إذا اتَّبَعُوا إبراهيمَ أنْ يَنالوا أقْسَى العقَاب من مَلكهم. وهاهُو ذا مَلكُهم نَمرودُ يَستَدْعيه ويَتحاوَرُ معَه: ما هَذه الفِتنةُ التي أيقظتَها يا إبراهيمُ؟! وما هَذا الإلَهُ الذي تَدعُو إلَيه؟!

ويردُّ إبراهيمُ في ثَبَات وطَلاقة: ربِّيَ الذي يُحْيِي ويُمِيتُ.

وهنَا سَخرَ المَلكُ وقالَ: إذا كانَ إلهُكَ هذَا يُحيي ويُمِيتُ فأنَا أُحْيي وأُميتُ. أستَطيعُ أنْ أحكُمَ علَى إنسَان بالمَوْت وأمنَحَه الحياةَ، وأستَطيعُ أنْ أحكُمَ علَى أحَدِ الأحْياءِ بالمَوتِ، فأنَا أحْيِي وأُميتُ.

قالَ إبراهيمُ: إنَّ اللهَ خَلقَ الشَّمسَ وجعلَها تَأتي من الشَّرْق، وتغيبُ في الغَرْب، فهلْ تَستطيعُ بقُوَّتكَ وجَبَروتِكَ أن تُطْلِعَ الشَّمسَ من الغَربِ وتَجعلَها تَغيبُ في الشَّرقِ؟

وعجزَ الملكُ عَن الإجَابةِ، وبَدَا صَلَفُه وجَهْلُه، وصدمَتْه الحُجَّةُ البالغةُ!

وأمَرَه بالانصرافِ من أمَامِه، وأَخذَ يُحذِّرُ النَّاسَ من اتِّباعه ويتَوعَّدُهم بالعقَاب الشَّديد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ

الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

عَزمَ إبراهيمُ علَى الرَّحيل من بابلَ إلى أرْض أخرَى يدعُو فيها الناسَ إلى عبادَة الله، فانتهَى به المَطافُ إلى فلَسْطينَ، لكنَّه لَم يَجد هناكَ سوَى القَليلِ الذينَ اتَّبعُوه، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]

ثُم يَعُمَّ القَحطُ والغَلاءُ أرضَ الشَّامِ، فيَرحَلُ إلى مِصرَ ومَعَه زوجَتُه سَارةُ، وكانت عاقرًا لا تَلدُ.

وهناكَ أشارَتْ زَوجتُه أنْ يدخُلَ علَى جَارِيَتها المِصْريَّة (هَاجَر).

وعادَ الجميعُ إلى فلسطينَ، حيثُ دخلَ إبراهيمُ بهاجرَ، فولدَتْ لَهُ غُلامًا زَكيًا هُو إسماعيلُ، فيَسعَدُ به أبُوه، وتَقَرُّ به عَيْناه، وكأنَّ اللَّهَ يُثيبُه علَى صَبْره بَعدَ هَذه المُعاناة الطَّويلة.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]

ويأمُر اللهُ إبراهيمَ بالرَّحيلِ إلى صَحْراءِ الجَزيرةِ العربيَّةِ.

ويَرحَلُ إبراهيمُ وهاجرُ ومعَهُما وَلَدُهما الصَّغيرُ إسماعيلُ، تَقودُهم رعايةُ اللهِ.

ويَطُولُ المَسيرُ، ويَمتدُّ السَّفَرُ، وتَشتدُّ المعاناةُ. ثُم يتوقَّفُ إبراهيمُ في مكَانٍ قَفْرٍ مُوحِشٍ لا زَرعَ فيه ولا حَياةَ، ثُم يقولُ: سنستقرُّ هاهُنا.

وتسأَلُه هاجرَ: هُنا في هذَا المكَانِ المُوحِشِ؟!

ولَم يَرُدَّ إبراهيمُ عـلَيهـا، فـأَدركَتْ أنَّه لا يَـملكُ رأياً في هَذَا، وإنَّمـا هو وَحيُ اللهِ.

وبَعدَ وَقْتٍ قَصيرٍ يُفاجئُ إبراهيمُ هاجرَ: إنَّني رَاجِعٌ إلى فِلسطينَ وَحْدِي، وسأترُكُ لَكِ ولِوَلَدك ما تَبَقَّى مِن الطَّعَام والمَاءِ.

قَالَت المَرأةُ المُؤمنةُ: إلى أَينَ تَذهبُ؟ ولِمَن تترُكُنا هاهُنا؟ ومَن يَحْمِينا من الوُحُوشِ؟ خُذْنَا مَعَكَ، ولا تَترُكْنَا وَحْدَنا.

ولَكنَّ إبراهيمَ ـ عَليه السَّلامُ ـ يُصمِّمُ علَى المَسيرِ.

وتَتْبعُه هاجَرُ، وتكرِّرُ عَليه قولَها مَرَّات، وإبراهيمُ ـ عَليه السَّلامُ ـ لا يَلتفتُ إليها. وعندَئذ أدركَتْ أنَّه لا يَصنعُ ذلكَ من تِلقاءِ نَفسِه، فسَألَتْه: آللَّهُ أمَرَكَ بهَذا؟ فقالَ الخليلُ عَليه السَّلام: نَعَمْ.

فأجَابَتْه هاجرُ بروُحِ المُؤمِنَة، الوَاثقةِ بربِّها:

- ما دَامَ هَذَا أمرَ اللَّه فلَنْ يتَخلَّى عَنَّا. اذهَبْ أنْتَ في رِعَايَة الله.

ويُعْطي إبرَاهيمُ ظَهرَه إليهمَا، ويَصْعدُ أقربَ الرُّبَى، ثُم يَستقبلُ مكانَ البَيْتِ، ويَدعُو اللَّهَ متوسِّلاً:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وينطلقُ إبراهيمُ تاركًا زوجتَه وولَدَه في رعَايةِ الله.

لقَد سلَّمَتْ هاجرُ بهَذَا القَدَر، فتَحلَّتْ بالصَّبْر، وأَخذَتْ تَقتَصدُ في الزَّاد والمَاء، حتَّى نَفِدا تمامًا، وبَكَى الوَليدُ جُوعًا وعَطشًا حينَما جَفَّ ثَدْيُها من اللَّبن.

إنَّ ولَدَها يَتَلَوَّى ألمًا أمَامَ عَينَيها وهيَ عاجزةٌ تمامًا عَن فِعْل أيِّ شَيءٍ.

رفعَتْ كَفَّيْها إلى السَّماء تَدعُو خَالقَ هَذَا الكَوْن أنْ يَمنَحَها الفَرَجَ، ويخلِّصَها من هَذه المحْنَة القَاسيَة؛ لقَد أوشكَتْ عَلى الهَلاك هيَ وولَيدُها.

ماذَا تفعلُ؟

فكَّرَتْ في البَحْث عَن شَيْء، مَاءٍ أو زَادٍ، تَركَتْ وَليدَها يَبْكِي، وراَحَتْ تَعْدُو وتُهرولُ بَاحثةً عَن أيِّ شَيْءٍ.

صَعدتْ جَبلَ الصَّفا وأطَلَّتُ منه علَى وادي مكة، فلَمْ تَرَ إلا الجبال السوداء الجرداء، ثُم عَادَتْ في فَزَعٍ وذُعْرٍ، ونظرَتْ حيثُ جبلُ المَرْوَة، فحسبَتْ أنَّ لَديه مَاءً، فأسرعَتْ إلَيه، فلَمْ تَجدْ غَيرَ السَّرابِ.

وأخذَتْ هاجَرُ تَجْري بلا وَعْي وتُهرولُ، تَذهبُ وتجيءُ بَينَ جَبلَي الصَّفَا والمَرْوَة سَبْعَةَ أشْوَاط، والطِّفلُ تَحتَ عَينَيْها تُردِّدُ صِياحَه جنباتُ الصَّحْراءِ، ويَخترِقُ قَلبَ أمِّه حَتَّى أعمَاقِه.

(يا ربِّي الرَّحمةَ). كانَ دعاءَهَا الدائمَ، حتَّى تَعِبَتْ من السَّعْي والهَرْوَلَة، فعادَتْ إلى حَيثُ وليدُها، تَنتظرُ مَا يَأتِي بِه اللهُ.

ويزدادُ إسماعيلُ بكاءً ودبّا فَوقَ الأرْضِ بقَدمَيْه ويدَيْه من شدَّةِ الجُوعِ والظَمَأ.

وفَجأةً يَستجيبُ ربُّ الأرْضِ والسَّماءِ، يَنبثقُ الماءُ من تحَتِ قَدَمَيِ الصَّغيرِ بغزَارةٍ شَديدة! لقد أرسلَ اللهُ ملكاً فضربَ الأرضَ بجناحه فانبثق الماءُ.

ماذَا حَدثَ؟! أحُلمٌ هذا أمْ حَقيقةٌ؟!

لَم تُصدِّق الأمُّ في البدَايةِ حتَّى لَمَسَت المَاءَ بيَدَيْها، وأخَذَتْ حَفْنَةً منْهُ وشَربَتْ ماءً عَذْبًا فُراتًا.

إنَّه مَاءُ زَمْزَمَ، هَذه العَيْنُ المُباركةُ التي فَجَّرَها اللهُ رَحمةً بإسماعيلَ وأمِّه، وتَلبيةً لدَعْوة إبراهيمَ ـ عليه السلامُ ـ في تَعميرِ هَذهِ الأرضِ الجَدْبَى.

أخَذَتْ هاجَرُ تَحتَضنُ وَلَدَها، وتُقَبِّلُه؛ فَقَد كَفَّ عَن البُكاءِ، وارْتَوَى، ودبَّتِ الحَياةُ مَرةً أخْرَى في جِسْمه.

- حَمدًا لَك اللَّهُمَّ، يا رَبَّ الأرْضِ والسَّماءِ، ورَبَّ الماءِ والهَواءِ.

وتَبقَى عَينُ زمزَمَ ذِكْرَى طَيِّبةً خَالدةً علَى الدَّهرِ يَجتمعُ حَولَها الحَجيجُ يَشربونَ ويَحمَدونَ اللهَ.

لقَد سَـقَى المَاءُ الطِّفلَ وأمَّـه، كَما سَـقَى الأرضَ من حَولهـما. ومَـا أشدَّ عَطشَ الصَّحْراء! ومَا هيَ إلا لَحظاتٌ حتَّى حوَّمَ الطيرُ فوقَ الماءِ.

وأهلُ الصَّحراء أهلُ فطنَة وفراسَة، فـإذا رَأَوْا طَيراً يَحومُ أدركُوا أنَّه يَحُومُ فَوقَ مَـاء. لهَذَا فقَدْ شَـاهدَ قَومٌ من قَبـيلة جُرْهُمَ تَحليقَ الطَّير وهُم يَسـيرونَ قُربَ هَذَا المكَانِ، فأَرسَلُوا مَنْ يُؤكِّدُ لَهُم وُجودَ الماءِ.

ويَعودُ دَليلُهم لاهثًا: إنَّه ماءٌ كثيرٌ لا يتوقَّفُ، وبجَانبِه امرأةٌ وطِفلُها.

- أيُّ امرَأةٍ وأيُّ طفْلٍ؟!

أخذُوا يتحاوَرونَ مُندَهشينَ حتَّى أشارَ كَبيرُهم بالانْطلاقِ إلى مَكانِ الماءِ.

هاهيَ هاجَرُ تَغسلُ جسمَ وَليدهَا وتُضاحِكُه، فإذَا بغُبارٍ يَتطَايَرُ فَوقَ التِّلالِ الجَنوبيّة، يَنشقُّ عَن عَدَدٍ من الفُرسَانِ.

نَزلَ الجَـميعُ عَن خُـيـولهم، تَوقَّـفُـوا بالقُـرْب منهـا! وتَفطنُ هاجَـرُ إلى وُجُودهم، فـتَضُمُّ وَلِيـدَها في خَوْفٍ ورُعْبٍ، لَكنَّ كَـبيـرَهُم يَتقـدَّمُ في مَودَّةٍ شَديدَةٍ:

- لا تَخَافِي يَا سيِّدَتي. هَلْ لَنَا أنْ نُقيمَ بجَانبك ونَشربَ مِن هَذا المَاءِ؟

أحسَّتْ هاجَرُ بالاطمئْنانِ، وأنَّ هؤلاءِ القَومَ لا يُرِيدُونَ بهَا سُوءًا. قَالَتْ:

- تَفضَّلُوا، فالمَاءُ هُنَا مِن عِنْد اللَّه فَاطرِ السَّمَواتِ والأرْضِ.

قالَ كَبيرُهُم: مَن تَكُونينَ أيَّتُها السَّيِّدَةُ؟!

قالَتْ: هَذَا وَلَدُ نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ، وأنَا أمُّ هَذَا الغُلامِ، وقَد تَركَنَا هُنَا وَحْدَنا وتَفجَّرَ هَذَا الماءُ مِن تحَتِ قَدَمَيْ وَلِيدِي!

دهشَ الجَميعُ لحَديث هاجَرَ؛ فَهمْ يعرفُونَ جَيِّدًا أنَّ هَذه الأَرضَ لَم يكُنْ بها ماءٌ من قَبْلُ، لكنَّهم أبْدَوْا مودَّتَهم لهَا ولوَلِيدِها وأعْطَوْهَا عَددًا مِن الأغنَامِ تَرْعَاها هيَ ووَليدُها.

أمَّا هاجرُ فقَدْ شكرَت اللَّهَ علَى أنْ جَعلَ أفئدةً من النَّاسِ تَهْوِي إلَيهم.

ولْنَعُدْ إلَى نَبيِّ اللَّه إبرَاهيمَ عَلَيه السَّلامُ. إنَّهُ عَلَى ثِقَة بأنَّ اللَّهَ لَن يَتْرُكَ زَوجَتَه وولَدَه، ويُوحِي إلَيه اللهُ أن اطْمَئِنَّ يا إبراهيمُ؛ فقَد استَجابَ اللهُ دُعاءَكَ.

لَم يَكنْ إبرَاهيمُ يَستطيعُ أنْ يَنسَى امرأتَه وفَلَذَةَ كَبده؛ فقَدْ كَانَ يَزورُهُما بينَ الحِين والآخَرِ، ثُمَّ يَعودُ إلى حَيثُ يُكملُ رِسَالتَه إلى النَّاسَ.

ويَطمئنُّ إبرَاهيمُ علَى ولَده إسْماعيلَ؛ فقَد شبَّ، واستَطاعَ أن يَعْملَ بالرَّعْي مِثْل أولادِ جُرْهُم، بَلْ تَعلَّمَ الرَّمْيَ، ونَطقَ بلسَانِهم.

وكانَتْ لَيلةً قاسيةً علَى إبراهيمَ تلكَ التي مَرَّتْ علَيه وقَدْ أخَذَه الحَنينُ إلى امرأته وولَده، فرأَى في المَنام رُؤيَا أرَّقَتْه، وجَعلَتْه يقُومُ من نَومِه حَائرَ القَلْبِ. لقَدْ جَاءَهُ هاتفٌ يأمُرُه بذَبْحِ ولَده إسماعِيلَ.

تَأمَّلَ إبراهيمُ حَالَه، إنَّه نَبيٌّ، وحُلمُ الأنبيَاء رُؤيَا صادقةٌ لا تَكذبُ. لعلَّها محنةٌ جَديدةٌ تُضافُ إلى مِحَنِه السَّابقة، يُريدُ اللهُ ـ جلَّ وعَلا ـ أنْ يمتَحِنَه بهَا.

إنَّ عَلَيْه السَّمْعَ والطَّاعةَ.

هاهُو ذَا الآنَ قَد بَلغَ من الكبَر عتيّا، وكانَ يأملُ في الولَد، لكنَّ امرأَتَه سارةَ كانَتْ لا تَلدُ، ويتزوَّجُ بغَيْرها فتَلدُ لَه ولَدًا زَكيّا، ثُمَّ يُؤمَرُ بأَنْ يُسْكنَه وأمَّه بوَاد غَيْر ذي زَرْع، يُعانيَان الجُوعَ والظَّمأَ وخَطرَ الوُحُوش الضَّارية.

لكنَّ دُموعَ عينَيْـه تتوسَّلُ إلى اللَّه، فتَحدُثُ المُعجِـزةُ، المَاءُ، والرَّعْيُ، والأفئدةُ من النَّاسِ تَهْوِي إليهم.

والآنَ آنَ الأوانُ أن نطَّلعَ علـى الموقفِ العظيمِ الكريمِ فـي حيـاةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، بل في حياة البشر أجمعينَ... إبراهيمُ الشيخُ الكبيرُ المقطوعُ من الأهلِ والقرابةِ.. المهاجرُ من الأرضِ والوطنِ.. قد وهبَه اللهُ بعد طولِ انتظارِ غـلاماً حليـماً يأنسُ به ويبلغُ مـعه الـسعيَ، بدأَ الغـلامُ يسعى كـسعي أبيـه، ويرافقُه في الحـياةِ.. ما كاد يأنسُ بذلك حتى يرى في منامِـه أنه يذبحُه.. إنها إشارةٌ من ربِّه بالتضـحيةِ.. فماذا؟ لا يتـردَّدُ إبراهيمُ.. ولا يفكِّرُ إلا في طاعةِ ربِّه، إنه أمة حقـاً.. نعم، إشارةٌ من اللهِ وليستْ وحياً صريحـاً ورؤى الأنبياء وحيٌ.. إشارةٌ لكنها حقٌّ وتكفيه الإشارةُ للطاعةِ المطلقة لله سبحانه، إنهُ يأمرُه بذبحِ فلذةِ كـبده!! لم يعتـرضْ.. لم يتردَّدْ.. لم يسـألْ لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيدَ.

لَم يأخُذْه قَسْرًا ولا قَهْرًا، وإنَّمَا عَرَضَ عَليه أَمرَ اللَّه، وكأنَّه يَقولُ لَه:

- ليسَ هذَا من عندي يا وَلَدي، ولا يَدَ لي فـيه؛ فأنَا وأنتَ مـلْكٌ للخَالقِ الكَريمِ، وهُوَ يأمُرُني الآنَ أنْ يَستَرِدَّ مَا أعْطَى، يَسْتَردَّ مِلْكَه.

فماذا يكونُ موقفُ الغلامِ الحليم؟!

- لقـــد ارتفعَ الابنُ إلى الأفـقِ الذي ربَّاه علـيـــه أبوه، ربَّاه عـلى أزكى الأخلاقِ وأرفعِ الآداب، وهنا تظهرُ ثمرةُ التربيةِ الحسنة.

لقد أشـرقَ قلبُ الغلام إسمـاعيلِ بالإيمانِ ومحبَّةِ الله وطاعتـهِ والتسليمِ المطلقِ له فيما يأمره ومن غير تردد يقول إسماعيل:

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

برٌّ بأبيه عـجيبٌ جداً إذ قالَ له وهـو يحسُّ أنَّ الأمرَ من الله «يا أبت» في لطفٍ وأدبٍ وهدوءٍ وخلقٍ حسنٍ وطاعـة للوالد الممتـحَنِ ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾.

لكنْ كـيفَ؟! كيفَ يتـحمَّلُ الأبُ أنْ ينـظُرَ في عَينَيْ وَلَدِه وهُوَ يَذبحُـهُ؟ وكَيفَ يُقاوِمُ محبَّتَه لَه ودَقَّاتُ قَلبِه التي تَدُقُّ بالرَّحْمَةِ عَلَيه؟

أَدْرَكَ الغُلامُ الزَّكِيُّ الطَّاهرُ أنَّ أَبَاهُ قَد تَملَّكَتْه الحَيْرةُ، فأرَادَ أنْ يُخفِّفَ عَنه:

يا أَبَتِ اشْدُدْ وَثَاقي، وأَحكِمْ رِبَاطِي حتَّى لا أَهتزَّ ألَمًا أو أضطرِبَ أمامَكَ.

واكشفْ عنِّي ثَوْبي حتَّى لا تَسقُطَ عَلَيه قطراتٌ من دَمي فينقُصَ أجْري، وتَرَاه أمِّي فيشتدَّ ألَمُها وحُزنُها. يا أبَت، أطعِ اللهَ، واشحَذْ سِكِّينَك، وأسرِعْ بهَا علَى رقَبَتي ليَكُونَ أهونَ عليَّ. هيَّا يا أبَتِ واللهُ معَكَ.

تساقَطَتْ دَمعاتُ الألَم والرَّحْمَة من عَيْنَيْ إبراهيمَ، وتَهَدَّجَ صوتُه: يا ولَدي، أنتَ نعْمَ الولَدُ، ونعْمَ العَونُ علَى أمْرِ اللَّه. ثُمَّ أخذَه إلى صَدْرِه، وضَمَّه بشدَّة، وهُوَ يَبكِي، وبَكَى مَعَه إسمَاعيلُ.

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ باللأدبِ مع الله، بالروعةِ الإيمانِ! وبالنبلِ طاعةِ الوالدِ! وبالعظمةِ التسليمِ لأمرِ الله!

وأخَذَ إبراهيمُ يَربُطُ وَلَده، ويُوسدُه الأرضَ، ووجَّهُه إلى أعلَى، فأخذَ السِّكينَ، ومرَّ بها علَى رقَبته، لكنَّها لَمْ تَفعَلْ شَيئًا. وهُنا نَادَاه وَلَدُه: يا أبَت، يَدُكَ تَهتزُّ، ودمُوعُكَ تَنهَمرُ. اقلِبْني علَى وَجْهِي يا أبَتِ؛ حتَّى لا تُدْرِكَكَ رِقَّةٌ، فتَحُولَ بينَكَ وبَينَ أمْرِ الله.

فَعَلَ الخَليلُ هذَا.. ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]. أسلم واستسلمَ الوالدُ وابنه لأمرِ اللهِ بكاملِ الرِّضا والتسليمِ.. إنها حقاً معجزةٌ.. إنه بلاءٌ وأيُّ بلاءٍ!!.

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

[الصافات : ١٠٤ – ١٠٧]

لقد صدَّقَ إبراهيمُ الرؤيا، ونجحَ في الامتحانِ العصيبِ فنالَ الجزاءَ من الله القدير.

فالتفتَ إلى يَمينه، فإذَا بكَبْشٍ أملَحَ منَ الجنَّة!

وأنصتَ إلى هَاتفٍ يأمُرُه أنْ يذبحَ الكَبشَ بَدلاً من ولَده إسماعيلَ.

قامَ إبراهيمُ عَن ولَده، وأخَذَ يقبِّلُه ويَبْكي، وهُوَ يقولُ: اليومَ وهَبكَ اللهُ لِي يا بُنَيَّ.

وأسرَعَ يَشتغلُ بذَبْحِ الكَبْشِ.

وحَمدَ إبراهيمُ ربَّه، وسَجدَ له شُكرًا وحَمدًا؛ لأنَّه لَو كانَ ذبحَ ولَدَه لصارَتْ سُنَّةً، ولَذَبَحَ الناسُ أبناءَهُم، لكنَّها رحمةُ اللَّه بخَلْقه.

ومن هنا مضتْ سنةُ النحر لعيد الأضحى عند المسلمين إحياءً لهذا

الحادثِ العظيمِ الذي يصلحُ أن يكونَ عنواناً للتسليمِ لطاعةِ الله تعالى، وأن يكونَ قدوةً للأبناء في طاعة الآباء.

وما أجملَ هذه القصيدةَ التي تروي لنا هذه القصةَ العظيمةَ:

فاضت بالعبرة عيناه ... أضناه الحزنُ وأشقاه

شيخٌ تتمزقُ مهجتُه ... تتندَّى بالدمعِ لحاهُ

ينتزعُ الخطوةَ مهموماً ... والكونُ يناشدُ مسراه

وغلامٌ جاءَ على كبرٍ ... يتعقَّبُ في السيرِ أباه

والحيرةُ تثقلُ كاهلَه ... وتبعثرُ في الدربِ خطاه

ويهمُّ الشيخُ لغايتِه ... ويشدُّ الابنُ بيمناه

بلغا في السعيِ نهايتَه ... والشيخُ يكابدُ بلواه

لكنَّ الرؤيا لنبيٍّ ... صدْقٌ وقرارٌ يرضاه

والمشهدُ يبلغُ ذروتَه ... وأشدُّ الأمرِ وأقصاه

إذ تمرقُ كلماتٌ عجلى ... ويقصُّ الوالدُ رؤياه

«إني أرى في المنام أني أذبحك»

ويجيبُ الابنُ بلا فزعٍ ... افعلْ ما تُؤمرُ أبتاه

لن أعصيَ لإلهي أمراً ... من يعصي يوماً مولاهُ؟

واستلَّ الوالدُ سكيناً ... واستسلمَ ابنٌ لرداه

ألقاهُ برفقٍ لجبينٍ ... كي لا تتلقى عيناه

أرأيتمْ قلباً أبويّاً ... يتقبلُ أمراً يأباه

أرأيتم ابنا يتلقَّى ... أمراً بالذبح ويرضاه

وتهزُّ الكونَ صراعاتٌ ... ودعاءٌ يقبلُه اللهُ

تتوسلُ للملأ الأعلى ... أرضٌ وسماءٌ ومياه

ويقولُ الحقُّ ورحمتُه ... سبقتْ في فضل عطاياه

صدَّقت الرؤيا لا تحزنْ ... يا إبراهيمُ فديناهُ

يا إبراهيمُ .. يا إبراهيمُ ... يا إبراهيمُ.. فديناه

ويَرجعُ إبراهيمُ وإسماعيلُ إلى هاجَرَ، وترَى هاجَرُ ولدَها مُمْتَقِعَ اللَّونِ فسَألَتْه عَمَّا بِه، فقالَ: ليتَكِ كُنتِ معَنَا يا أمَّاهُ.. وأخذَ يَحكِي لهَا مَا حدَثَ.

لَقَدْ فَدَاه اللهُ بذِبْحٍ عَظيمٍ، والحَمدُ للَّه.

ويَعيشُ الذَّبيحُ إسماعيلُ، ويَستقيمُ عُودُه، ويتعلَّمُ العربيةَ من قَوْمِ جُرْهُم، ثُم يتزوَّجُ بواَحدةٍ منهُم.

لَكنْ يَشاءُ اللهُ أنْ تَموتَ أمُّه وهُوَ في قمَّةِ سَعادَته.

ويَزورُه أبُوه بينَ الحينِ والآخَرِ، فيتَذاكَرَان الماضيَ، ويَطمئنُّ الأبُ علَى وَلَده. وفي مرَّة زارَ إبراهيمُ ابنَه إسمَاعيلَ وأخبَرَه أنَّ اللَّهَ قَد أمَرَه ببنَاء البَيْت، فاستجابَ لَه إسماعيلُ، وأخَذَا يرفعَانِ قَواعدَ البَيتِ حَجَرًا حَجَرًا. ولَمَّا فَرغَا دعَا إبراهيمُ ربَّه: ﴿...رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ...﴾ [إبراهيم:٣٥].

وأذَّنَ إبراهيمُ في النَّاس بالحَجِّ إلى الكَعْبَة، صَعِدَ إلى أعْلَى الجَبَلِ ونَادَى: يا أيُّها النَّاسُ أجيبُوا ربَّكم. لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ..

ويَظلُّ النَّاسُ يطُوفونَ بالبَيْتِ، ويَذكرونَ قصَّةَ إبراهيمَ وإسماعيلَ الذَّبيحَ.

فتعالَى اللهُ الذي يَصطَفي مِن عِبَادِه مَنْ يشَاءُ.

obeikandl.com

obeikandl.com

العبيكان
(01) 4983392